القوميات وتأثيرها على العلاقات الدولية

المدرس

المساعد

حسين

مصطفى احمد(*)

المقدمة

يحتل موضوع القوميات في السنوات الأخيرة أهمية استثنائية على صعيد العديد من دول العالم تلك التي يتكون سكانها من أكثر من قومية، ويشكل هذا الموضوع قضايا ساخنة تمس صميم أمن وكيان واستقرار تلك الدول، لاسيما بعد أن أخذ البعد القومي أو العرقي أو الديني أو الثقافي لكثير من القوميات أبعاداً أخرى نتيجة عوامل داخلية ومؤثرات خارجية، والتي تتمثل بكثير من دول العالم.

إن علم العلاقات الدولية يهتم بدراسة هذه الظاهرة انطلاقاً من أن حركات التحرر للشعوب تمثل لاعباً وفاعلاً مهماً في مسار العلاقات الدولية وطرفاً في رسمها وتغيير مجراها، لأن الإرث الاستعماري والتنوع العرقي الهائل وغياب الديمقراطية والحريات، قد جعل دول العالم تدفع تكاليف باهظة من أرواحها وأموالها واستقرارها ونمائها ثمناً للنزاعات والصراعات والمشاكل القومية، الأمر الذي يدعو الباحثين بإلحاح لتكثيف الجهود في مثل هذه البحوث التي تتناول هذا الأمر.

فرضية البحث:

ينطلق البحث من فرضية مفادها إن قضايا القوميات هي من أهم العوامل المؤثرة في العلاقات الدولية والسياسة الخارجية لأنه تعين صانع القرار

(*)كلية العلوم السياسية-جامعة النهرين

على التعامل الصحيح مع مشاكل القوميات وحقوقها لتوظيفها في اتجاه اغناء وتقوية العلاقات الدولية بدل أن تتحول إلى بؤرة استنزاف داخلي وتوتر خارجي ومدخل للتدخلات الأجنبية.

منهجية البحث:

يستعين البحث بالمنهج النظمي (Approach systemic) والمنهج التاريخي (Approach historic) لطبيعة الموضوع الذي يجمع بين السياسة والتاريخ، لمقتضيات الضرورة في الموضوع المبحوث عنه، والسعي لبلورة رؤية واضحة عنه تؤدي إلى وضعه في إطار علمي، فضلاً عن الاستعانة بالمنهج الوظيفي البنيوي(Approach Functional and structural) الذي يساعد على تحليل الوظيفة التي تؤديها الظاهرة في البناء الكلي لظاهرة أكبر، وفي ضوء ذلك تحددت هيكلية البحث.

المبحث الأول: مدخل لدراسة القوميات

لقد تطرق الكثير من علماء السياسة إلى ظاهرة القومية عند حديثهم عن مكونات الدولة، كما فعل علماء الاجتماع السياسي وعلماء الانثروبولوجيا والاثنولوجيا وعلماء الجغرافية البشرية والدين والفلسفة واللغة والأدب والتاريخ كل حسب مدخله الخاص ومن زاوية تعلق الأمر بعلمه وتخصصه،ولطبيعة الموضوع ينبغي معرفة ماهية القومية وكيف كانت وأصبحت عبر التاريخ، وعوامل تكوينها، وما النظريات التي تفسر ظاهرة القومية.

أولاً: مفهوم القومية:

أختلف الباحثون في تحديد معاني القومية تبعاً لاختلافهم في المداخل والمصالح والإيديولوجيات المختلفة في نزاعاتهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

وعلى أية حال، فالقومية لغة مأخوذة من كلمة (قوم) وهي نوع من الولاء للقوم الذي ينتسب إليه[١]، وقد وردت في القرآن الكريم كلمة قوم في (٣٨٣) آية وكلها بمعنى جماعة اجتماعية[٢] وعند الغرب فإن كلمة القومية مأخوذة من الكلمة اللاتينية (Nascar) التي اشتقت منها كلمة أمة (Nation)[٣] التي جاءت بدورها من الكلمة اللاتينية (Natio) التي تعني المنحدرة من أصل واحد[٤] التي لها أصل كلمة (Natus) وكلتاهما أخذتا من كلمة (Nascar)[٥].

أما كلمة القومية اصطلاحاً فقد جاءت في وقت متأخر عند نداء الشريف حسين عام ١٩١٦، وشاع استخدامها وأصبح مدلولها يعني الانتماء العربي الشامل، ونحتت كلمة قوم التي تعني في التركية القبيلة أو الشعب لتدل على الوجود القومي[٦].

ولاشك إن القومية كظاهرة ومفهوم سياسي تشير إلى عنصري الوعي الذاتي والحركة السياسية لدى أبناء الأمة في سعيهم لتقرير مصيرهم وإثبات حقهم في خلق سلطتهم وكيانهم المميز ثقافياً واقتصادياً، وإنجاز مشروع دولتهم المستقلة، فالقومية هي الوعي المتميز الذاتي الجماعي بوجود الأمة والحركة السياسية هي التعبير عنه بشكل سياسي للوصول إلى الهدف وهو إنشاء الدولة[٧].

---

(١) بويد شيفر، القومية عرض و حليل، رجمة جعفر خصباك وعدنان الحميري، بغداد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ص ١٨.

(٢) عبد السلام إبراهيم بغدادي، الوحدة الوطنية ومشكلات الأقليات في أفريقيا، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣، ص ١٥٨.

(٣) بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٤) سام عبد الزهرة،دور الأقليات القومية في قوة الدولة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الـ ربية للبنات، ٢٠٠١، ص ١١.

(٥) بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٦) أحمد صدقي الدجاني، ملاحظات في نشأة الفكر القومي العربي، عن كتاب القومية العربية في الفكر والممارسة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، د.ت، ص ٣٠٩.

(٧) سعد الدين إبراهيم وآخرون، المجتمع والدولة في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ٤٤.

إن مفهوم القومية هو مجموعة من البشر تربط أعضائها صلات متعددة من وحدة الإقليم والأصل والعادات واللغة ويربط بين أفراده تشابه في الحياة والضمير الاجتماعي[٨].

كما تعرف القومية بأنها حالة عقلية يكون الولاء الأسمى للفرد وعائديته للدولة القومية، أو الموقف الذهني الذي يحس بها الفرد من أن دولة الأمة هي محط الولاء العلماني الاسمى[٩].

وهناك تعاريف أخرى لها معاني جانبية للقومية، فبدلاً من أن تكون القومية مجموعة بشرية قبل أي وصف آخر نراها تصرف للإطلاق على أمور هي من لوازم القومية وتوابعها مثل التعريفات الآتية كالرغبة في المحافظة على الهوية القومية أو الثقافية لشعب عندما تكون الهوية في خطر، أو أن القومية هي برنامج أو مثل أعلى يقوم على الوعي بالأمة، أو أنها مجموعة الخصائص المعبرة عن وجود أمة كحركتها السياسية والثقافية المعبرة عن وحدتها إزاء الخطر الخارجي أو مخاطر الاستبداد الداخلي[١٠] بهدف تطويرها وتقدمها.

ومن قراء التعريفات آنفاً نشير إلى الملاحظات الآتية[١١]:

١- لا يشترط في القومية أن يكون جميع أفرادها في مكان واحد ولا في دولة واحدة.

٢- لابد للقومية من أرض يعيش الناس عليها، مهما كان حجمها صغيرةً أو كبيرةً لأن تبلور شخصية أي قوم يكون عبر تحولات وتفاعلات في أرض معينة.

---

[٨] ساطع الحصري، ما هي القومية-أبحاث دراسات على ضوء الأحداث والنظريات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص٣٥.

[٩] أسماعيل حسين فضل، المشكلة الكردية في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، الخرطوم، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، ١٩٨٥،ص٤٩.

[١٠] معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٨، ص ١٠٨٢.

[١١] لمزيد تفصيل ينظر سمير بحر، المدخل لدراسات الأقليات، القاهرة، مكتبة انجلو المصرية، ١٩٨٢،

وكذلك منى أمين قادر، قضايا القوميات وأثرها على العلاقات الدولية (القضية الكردية نموذجاً)، مركز كردستان للدراسات الستراتيجية، ٢٠٠٣، ص ١٩.

٣- قد يمارس ظلم معين ضد قبيلة أو طائفة من قومية لأي سبب وتهمش، وتشعر بالتمييز وتطالب بمطالب سياسية، ومثل هذه الحالات تعد قضايا دون القومية.

٤- قد يمارس ظلم معين بسبب الأرض أو السيادة أو الدين، وهذه الحالة تعد القضية فوق القومية.

٥- يختلف مفهوم القومية عن مفهوم (الرس Race) والسلالة لا توجد سلالات نقية بالرغم من ادعاء الشوفينية، لذلك لا تعد وحدة الأصل من عوامل تأسيس القومية إلا في مجالات ضيقة كعامل مساعد.

٦- إن القومية غريبة عن إرادة الشر وأبعد ما تكون عن البغضاء فهي شعور الفرد بالولاء المطلق الواجب عليه نحو دولته القومية[١٢].

وأخيراً لا ننسى انه قد تعلق بمعنى القومية معاني سلبية تدل على الشوفينية وكره الآخرين والاستعلاء العربي... الخ.

إن اختلاف الباحثون في الوصول إلى تعريف للقومية يكون جامعاً لابد من الإقرار بان هذا التعريف فيه غموض واضح، ويرجع ذلك للأسباب الآتية[١٣]:-

١- تضارب المصالح السياسية واختلاف الدول التي تنشأ فيها أصحاب التعريف.

٢- القومية ظاهرة اجتماعية، ومن شأن أغلب المصطلحات الاجتماعية أن تختلف فيها الرؤى والأفكار، لأنها تصاغ في مجتمعات متباينة تعبر عن تجارب مختلفة، ولا تعبر عن حقائق متطابقة، لأن الأمور الاجتماعية تختلف عن الأمور المادية الطبيعية التي تتفق حقائقها باختلاف الزمان والمكان.

---

(١٢) هانس كهن، القومية معناها و اريخها، رجمة أمين محمود الشريف، القاهرة، مطبعة النهضة، د.ت، ص ١.

(١٣) نى أمين قادر، المصدر السابق، ص ١١-١٢.

٣- المذاهب الأيديولوجية واختلاف النظريات.

٤- اختلاف العلماء حول تكوين القوميات.

وتبعاً لذلك فقد اختلف الباحثون في تحديد معنى القومية في عناصرهم وتفاوتهم ونزعاتهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

ثانياً: نشأة و تكوين القوميات:

تحدث علماء السياسة عن العوامل المشتركة يمكن للشعوب الشعور بالخصوصية والتميز من الآخرين، واختلفوا في تقدير أهمية تلك العوامل وأولويتها في تشكيل تلك الأمة، ولكن يكفي أن تشعر مجموعة من الناس بوجود بصلات خاصة وروابط متميزة فيما بينها لكي يمكن أن يكونوا قومية خاصة بغض النظر عن المكون الأساسي لذلك الشعور لتلك المجموعة من الناس في أن تحافظ على خصوصياتها، وفي أن تعيش في مساواة وبحقوق كاملة مع باقي الشعوب التي تختلف معها.

وفي ضوء هذه الحقيقة، فثمة عوامل تساهم في تكوين القوميات، يمكن إجمالها على النحو الآتي[١٤]:-

١- اللغة: وتشكل الوعاء الفكري والثقافي لأي أمة، فهي أداة للاتصال والتفاعل والتلاحم، وقد تم الإحساس بوحدة اللغة حتى أصبحت سياسة متبعة في كل الدول والقارات، ولعل ألمانيا دليلاً على ذلك.

٢- الدين: وهو أعز الانتماءات عند الإنسان وأعلاه قيمة وفي نظرة للقضايا القومية المشتعلة حالياً لا تدع فرصة في تغليب العامل الديني على غيره، مثل القضية الفلسطينية وقضية كشمير وصراعات المسلمين والهندوس في الهند والألبان في كوسوفو... الخ.

---

[١٤] **المصدر نفسه، ص ٢٢-٢٤.**

٣- الأرض: وتعد من العوامل الرئيسة في تكوين القومية في كل الأحوال، فمشكلة الأرض من أعقد المشكلات في الصراعات القومية وسبباً رئيساً في تفجرها، فالأمة التي تفقد الأرض تفقد كيانها شيئاً فشيئاً.

٤- العرق: وهي من العوامل الرئيسة المكونة للقومية، فلاشك إن أمةً مثل السود في أمريكا لا يجمعهم إلا لون البشرة، وبالتالي فإن هذا العامل يمكن أن يضاف إلى العوامل الأخرى قوة، فالسود في أمريكا لا يجمعهم في الغالب إلا لون البشرة.

٥- التاريخ: وهي من العوامل الأساسية المكونة للقومية، ويلجأ دعاة القومية إلى كتابة التاريخ القومي، والتفكير بأمجاد الماضي لتوحيد الأمة في الحاضر وخلق الشعور المشترك بوحدة المصير في المستقبل.

٦- العادات والتقاليد: وهي من الأمور المهمة التي تضيف لوناً خاصاً لأي قومية وتعطيها التميز والشخصية.

وهناك عوامل أخرى ذات أهمية تذكر أو جانبية التأثير على النشأة القومية مثل إرادة الحياة المشتركة ووحدة المصالح الاقتصادية والمدنية والفكرية، ووحدة الآمال والآلام والوحدة الثقافية والإرادة الحرة[١٥].

أما نشوء القوميات فانه تعزى إلى جملة من المسببات يمكن إيجازها على النحو الآتي[١٦]:-

١- وجود القومية نتيجة لعامل العزلة والتحول في الميول للجماعة، لاسيما إذ كانت تحتل منطقة معينة من الدولة، عندئذ فإنها تكسب الشعور

---

[١٥] مجيد حميد عارف، اند وغرافيا شعوب العالم، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٨٠-٨١، وقارن مع صباح محمود وآخرون، الجغرافية السياسية، مكان النشر بلا، دار النشر بلا، د.ت، ص ٧٧.

[١٦] لل فصيل ينظر: محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافية السياسية، أسس و طبيقات، القاهرة، المكتبة الفنية الحديثة، ١٩٧٣، ص ٢٠٣، وكذلك محمد محمود أبو العلا، الجغرافية السياسية، الكتاب الأول، القاهرة، المطبعة الفنية، د.ت، ص ١٠٧-١٠٨، وكذلك عبد الرزاق عباس حسين، الجغرافية السياسية مع التركيز على المفاهيم الجيوبولتيكية، بغداد، مطبعة اسعد، ١٩٧٦، ص ١٧٦-١٧٧.

بالعزلة، الأمر الذي يدفعها بتكوين دولة خاصة بها، وأمثلتها كجماعات الباسك في أسبانيا.

٢- ظهور القومية نتيجة الجمع الاصطناعي لعدة قبائل أو قوميات مختلفة من قبل المستعمر في وحدات إدارية، أو برسم الحدود السياسية بشكل يقسم القومية الواحدة بين دولتين أو أكثر، وأمثلتها قضية الطوارق المنتشرة في مالي والنيجر وليبيا والجزائر[١٧].

٣- بروز القومية نتيجة لموجات الغزو التي تعرضت لها الدولة، كالقومية الألمانية في الألزاس.

٤- ظهور القومية من بقايا الشعوب التي تعيش في بلادها نفسها دون أن تزاحمها عناصر أخرى، وأدى نزول عناصر جديدة في البلاد تمتاز بكثرة عددها، مما جعل العناصر القديمة تنزوي في أماكن معينة تعزلها عن العناصر الجديدة الغالبة، وأمثلتها الاستراليين الأصليين في استراليا والهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية.

٥- نزوح جماعة بشرية من منطقة كانت تعيش فيها إلى منطقة أخرى، وكان عددها قليلاً، مما خلق فيها أقلية قومية، وأمثلتها الأقلية التركمانية في العراق.

ثالثاً: نظريات تفسير نشأة وتكوين القوميات:-

تشترك ثمة نظريات في تفسير نشأة وتكوين القوميات تقف في مقدمتها:

١- النظرية الألمانية:

تنادي هذه النظرية بان العرق واللغة هي العوامل الرئيسة المكونة للقومية مع الادعاء بوحدة العرق الاري الذي ينتسبون إليه حسب مدعاهم.

---

[١٧] عبد السلام إبراهيم وسعد ناجي، الأمن القومي العربي ودول الجوار الجغرافي، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات ا سـ را يجية، ١٩٩٩، ص ٥٩.

ومن الذين تبنوا هذه النظرية وكانت ركائز لهم هيردر (١٧٤٢-١٨٠٣) وفيخته (١٧٦٢-١٨١٤).

ولقد كان لآراء هيردر وفيخته في شأن أهمية اللغة أثر عظيم في بعث الروح القومية للألمان. ودفعت كثير من المفكرين إلى الاهتمام بالبحوث والدراسات اللغوية والاجتماعية والسياسية والقومية.

ولعل الألمان أول من استفاد من هذه النزعة القومية. وكانت نتيجة ذلك الوحدة التي أدت أن تكون ألمانيا الآن إحدى الأقطاب الثلاثة اقتصادياً بعد أمريكا واليابان.

كما أضاف البعض إلى العرق ووحدة اللغة ووحدة الجغرافيا الطبيعية، ومن هذا المنظور يرى جيسبي مازيني إن كلاً من جبال الألب والبحر المتوسط يشكلان حدود الأمة الإيطالية. وكذلك اللغة فحيثما كانت الإيطالية لغة الحديث يكون وطن الشعب الإيطالي[١٨].

ومع كل هذا فإن النظرية الألمانية عرضة إلى انتقادات عدة، أخذت شكلها في اتجاهين رئيسين فبعضهما يستند إلى وقائع تاريخية، وبعضها الاخر يستند إلى ملاحظات نظرية[١٩].

الأولى: إن هناك دولاً تضم أناساً يختلفون في لغاتهم مثل سويسرا وبلجيكا، وهناك دول انفصلت عن بعضها البعض، على الرغم من وحدة لغاتها مثل أمريكا الشمالية والجنوبية، الأمر الذي يدل على إن القومية لا ترتبط باللغة.

الثانية: إن العاطفة والمشيئة شيئان أهم من اللغة لأنها تؤثر في تكوين الأمة أكثر من اللغة، فاللغة عاملاً ثانوياً وليس عاملاً أصيلاً.

٢- النظرية الفرنسية:

---

[١٨] إدوارد مكنال بيرنز، أفكار في صراع النظريات السياسية في العالم المعاصر، دار النشر بلا، د.ت، ص ٣٤٩.

[١٩] ساطع الحصرالأعمال القومية لساطع الحصري، سلسلة الـ ـراث القومي، القسم الـ ـاني، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ١٨٢٦-١٨٢٧.

تنادي هذه النظرية بان الإرادة والرغبة في العيش المشترك داخل الحدود الطبيعية هي أساس القومية.

ومن أبرز رواد النظرية المؤرخ الفرنسي المعروف دي كولانج وأرنست رينان، وجاءت هذه النظرية كرد للنظرية الألمانية ونتيجة لتضارب المصالح بين الألمان والفرنسيين لأن سياسة الفرنسيين ترمي إلى التوسع في الشمال حتى نهر الراين لغرض الاحتفاظ بإقليم الألزاس الناطق بالألمانية، وهو ما استولت عليه فرنسا في عهد لويس الرابع عشر وضمته بموجب معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨ المشهورة.

يقول (دي كولانج) في الاحتجاج لصحة نظرياتهم، إن القومية لا تتعين باللغة، بل إنها تتعين بالرغبة والمشيئة ، فالعدالة تقضي بمراعاة الألزاسيين، وتحقيق رغباتهم في هذا المضمار[٢٠].

ويرى أرنست رينان في تعليله على هذه النظرية بان التاريخ المشترك والتراث والعيش المشترك والآمال المشتركة تؤدي إلى خلق وتطوير الإرادة المشتركة للحياة معاً وتكوين أمة واحدة، إلا إن ما يؤخذ على هذه النظرية أموراً كثيرة منهم[٢١]:-

١- الإرادة قد لا تكون واعية، وتخضع للكثير من العوامل.
٢- الإرادة نتيجة وليس سبباً في إيجاد الأمة.
٣- الإرادة نظرية منحازة ناتجة عن الدفاع عن مصالح سياسية معينة وليست تحليلاً أكاديمياً مجرداً موضوعياً.
٤- الإرادة ليست ثابتة، وقد تتغير بالمتغيرات والمصالح السياسية والاقتصادية.. وهكذا.

٣- النظرية الماركسية والاشتراكية (النظرية الاقتصادية):

---

[٢٠] إدوارد مكنال بيرنز، المصدر السابق، ص ١٠٠.
[٢١] نى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.

تأتي نظرية ماركس في إطار النظريات التي تقوم على أساس إن المصالح الاقتصادية والطبقية هي العامل الأساس في تكوين الأمة، وبالتالي تزول الصراعات والفوارق بجميع أشكالها التي تعتمد على اللون أو اللغة أو الجنس والعرق.. الخ.

ويرى ماركس وانجلز الصراعات القومية مظهراً من مظاهر الصراع الطبقي، أما الصراعات القومية المحضة فكانا يقولان عنها حثالات التاريخ لأنها تصنع تطور نفسها ضد تطور القوى المنتجة[٢٢] ولعل المانيفستو الشيوعي لم يكن مخطئاً حينما قال الشيوعية لا تؤمن بالقومية، والخلافات القومية في طريقها إلى الزوال، وإن سيطرة الكادحين ستسرع الخطى[٢٣].

وانتقد ماركس وانجلز في جميع كتاباتهما المبدأ القومي ووجوب إزالة القوميات على سطح الأرض، لأنها مجرد اختراعات برجوازية، فالنظريات والأفكار الشيوعية التي أعلنها قادة الفكر الشيوعي وزعماؤه حول القومية قد اصطدمت بواقع الحياة، وهو ما أدى إلى خروج الكثير من المفكرين الشيوعيين على المنهج في محاولات تصحيحية على حسب مدعاهم بغية أن يفهم رفاقهم الماركسيون المسألة القومية كمسألة حاسمة في مجرة التاريخ بجانب الصراع الطبقي، وسميت هذه المحاولات من التقليديين بأنها محاولات تحريفية وإبداعية، وكان أغلب أصحاب تلك المحاولات من دول العالم الثالث[٢٤]، لأنها تدرك المشكلة بسبب التجربة التاريخية الخاصة بها، واعتمد هؤلاء آرائهم بأنها إعادة إنتاج صلاحية الماركسية وتوسيع أبعادها وتحويلها إلى مدرسة مواكبة للمتغيرات.

٤- النظرية الدينية:

---

[٢٢] ليوبولد مرمورا، الأمة والأممية (قضايا وآفاق مفهوم اشـ راكي للأمة) رجمة ميشيل كيلو، دمشق، منشورات وزارة الـ قافة السورية، ١٩٩٣، ص ٢١.

[٢٣] عبد الرحمن البزاز، هذه قوميـ نا، القاهرة، دار القلم، د.ت، ص ٣٦.

[٢٤] مـ نى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٣٠.

تنادي هذه النظرية بان الدين والعقيدة أقوى عامل في تكوين الأمم، إذ يشكل وحدة الفكر والمعتقد، ووحدة الشعور والوجدان، ووحدة الهدف والغاية، ووحدة الثقافة والتشريع، ووحدة الولاء والبراء.

وتحت تأثير هذه النظريات قامت الدعوات المختلفة لتشكل الأمم على أساس ديني، وأمثلتها الوحدة الدينية العالمية عند (كانت)[٢٥] ودعوة اليهود لجمع الشعب اليهودي وتكوين أمة ودولة دينية مثلما قامت فلسطين فعلاً.

وكثيراً ما كان العامل الديني منبع الإحساس القومي، وظهر هذا الأمر كثيراً في يوغسلافيا، فالصرب والكروات والبوسنيون أصل عرقي واحد وبيئة واحدة، ولغة واحدة، ولكن الصرب أرثوذكس، والكروات كاثوليك. والبوسنيون مسلمون، ومن ثم فإنهم ينظرون إلى أنفسهم كثلاث أمم مختلفة، وقد حصل فيما بينهم تلك الحروب الطاحنة والمجازر الدامية في البلقان المعروفة التي استهدفت في التسعينات الإبادة العرقية للمسلمين[٢٦].

١- أما الإسلام فانه يفرق بين الشعوب أو الشعب وبين الأمة ولا يعدهما نقيض بعض، بل يكمل بعضها البعض، كما قوله تعالى ((يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم))[٢٧] أو ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأن ربكم فاعبدون))[٢٨].

وفي مقابل النظريات الأربعة التي تطرقت فيها عن تفسير القوميات، فإن هناك نظريات وأفكار تناولت الأشكال نفسها بالتحليل ولكن من وجهة نظر عنصرية، وأمثلتها أفكار أرسطو التي تتبع من مفهوم ومنهج (الحتمية الجغرافي) الذي يرى خضوع البشر في قابلياته وتطوره الاجتماعي

---

[٢٥] محمود عاطف البنا، النظم السياسية، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٤، ص ١٩.

[٢٦] ألفصيل بروظارية بوديني، ا نوس وال اريخ، موسكو، دار ال قدم، ١٩٩٨، ص ٢١، وكذلك عبد العزيز المهني، البوسنة والهرسك، القضية والمأساة، الرياض، دار الهلال، ١٩٩٢، ص ٧٥ وما بعدها.

[٢٧] سورة الحجرات، الآية ١٣.

[٢٨] سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

والحضاري لعوامل البيئة والمناخ الجغرافي[٢٩] وأفكار بودان ومونتسكيو في كتابة روح القوانين، وقد ظلت تلك الأفكار العنصرية عالقة في الأذهان حتى القرن العشرين.

كما كان لظهور نظرية دارون دور كبير في تأكيد هذه المفاهيم، ووقع في الخطأ نفسه فلاسفة مشهورون أمثال ديفيد هيوم وادوارد لونك والأمريكي مورفن، ونوت، وكليدون وبلومناخ وبافون[٣٠].

ولعل النظريات العنصرية الحديثة لجوزيف آرثر دي جوبينيو (١٨١٦-١٨٨٢) وهوستون ستيوارت (١٨٥٥-١٩٢٧) والفيلسوف الألماني هاينرخ فون تريتشكه هي الأكثر عنصرية على الإطلاق.

وكانت هذه النظريات تروج وتنتشر وتدعم وتوفر الغطاء لعمليات الجشع والمعاملة اللاإنسانية للعمال السود، فضلاً عن تبرير تجارة الرقيق، حتى وصل الأمر إلى تغليف هذه النظريات بغلاف الدين[٣١].

وفي رد عليها اجتمع لفيف من العلماء والمختصين في علوم الوراثة والأحياء والنفس والاجتماع والانثروبولوجيا في مقر اليونسكو في باريس يشرحون فيه بطلان النظريات العنصرية، وأشتمل البيان على عدة نقاط[٣٢]:-

١- إن الناس جميعاً ينتمون إلى الجنس البشري وينحدرون من أصل واحد، على الرغم من وجود جدل حول زمن كيفية تفرع الجماعات البشرية من الأصل الواحد.
٢- الفوارق الموجودة بين الجماعات البشرية تعزى إلى التكوين الوراثي، كما يعزى البعض الآخر للبيئة.

---

(٢٩) حي أبو عيانة، دراسات في الجغرافية البشرية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٤.

(٣٠) قيس النوري، مدارس ا ـ روبولوجيا، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٧٦-٨٠.

(٣١) ون هنري زيغ، السياسة العرقية في بريطانيا، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والـ وزيع والإعلان، ١٩٨٣، ص ١٨-١٩.

(٣٢) فصيل ينظر: عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠.

٣- ليس من الضروري أن تكون الجماعات الدينية والوطنية والثقافية مطابقة لجماعات عرقية.

٤- الفوارق الموجودة بين الجماعات البشرية لا تقدم أي دعم للأفكار الشائعة عن أي تفوق أو انحطاط عام.

المبحث الثاني: الدولة القومية والدولة المتعددة القوميات

تؤكد الأحداث والوقائع الدولية أن الدولة القومية الحديثة الكاملة السيادة لم تكن معروفة قبل أربعة قرون، على الرغم من وجود مؤشرات تدلل ظهور الدولة كنظام سياسي أبعد منها تاريخياً.

وللوقوف حول هذا الموضوع ينبغي معرفة الدولة القومية وكيف كانت وأصبحت عبر التاريخ ، والدولة المتعددة القوميات التي كان من جملة ما يمكن أن تضم الأقليات القومية.

أولاً- الدولة القومية Nation-State:

تعد الدولة القومية كيان سياسي فاعل ومؤثر في العلاقات الدولية لأنها صاحبة السيادة، ولاسيما وحدتها وعدم قابليتها للتجزئة ولا توجد سلطة أعلى منها[٣٣]، حتى إن القانون الدولي لا يعترف بوجود سلطة يمكن أن تكون بديلاً عنها.

أن مفهوم الدولة القومية هي الدولة التي يعيش فيها شعب من قومية واحدة خالية من الأقليات والانقسامات وموحدة حضارياً وذات سيادة[٣٤]، ويندر أن نجد مثل هذه الدولة، وقليل جداً من الدولة ينطبق عليها الوصف بأنها دولة قومية لعدم تجانسها قومياً، فالدول خليط من تجمعات تاريخية كان توحدها بفعل التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاصلة فيها[٣٥].

---

[٣٣] منذر الشاوي، نظرية السيادة، بغداد، جامعة بغداد، منشورات العدالة، ٢٠٠٢، ص ٣٣.

[٣٤] عبد الرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص ١٧٥.

[٣٥] احمد عباس البديع، الأقليات القومية وأزمة السلام العالمي، مجلة السياسة الدولية، العدد ٤، القاهرة، مركز الدراسات السياسية وا سـ را يجية بالأهرام، ١٩٩٣، ص ١٦٦.

كما تعرف الدولة القومية بأنها وحدة سياسية تتضمن إقليماً جغرافياً محدد تحديداً دقيقاً يسكنها مجموعة من السكان منظمين أنفسهم داخلياً بما يضمن لهم نوعاً من القوة، ويعد السكان أنفسهم أمة لهم مشاعر قومية موحدة[٣٦].

وقد اختلف الكتاب حول الحقبة التي ظهرت فيها الدولة القومية، فبعضهم يرجعها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٣٧]، والبعض الآخر يرجعها إلى حقبة زمنية أقدم من عصر النهضة الأوربية[٣٨].

ويبدو في الواقع أن قبول فكرة الدولة القومية ترجع إلى فلسفة هيجل (١٧٨٠-١٨٣١)[٣٩]، إذ تمثل النسق الهام للفكرة، ودافعاً للدولة الأوربية للتخلص من السيطرة الأجنبية، فضلاً عن إنها وسيلة لزيادة العقلانية في تنظيم المجتمع، ووسيلة لتحقيق عقلانية وحتمية التاريخ.

أن فكرة الدولة القومية هي نتاج أوربي يرجعه البعض الى معاهدة ويستفاليا الشهيرة عام ١٦٤٨[٤٠] التي أنهت الحروب الدينية في أوربا واقترحت قواعد التعامل بين الدول الأوربية المكونة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي نتج عنها إقرار مبدأ المساواة ومبدأ الاستقلال وقيام مجتمع دولي لأول مرة في التاريخ[٤١].

وعلى الرغم من إن المعاهدة لم تنه الإمبراطوريات الأخرى (العثمانية والنمساوية والهنغارية) القائمة آنذاك، كما لم تمنع من قيام إمبراطورية جديدة

---

(36) De, Blij. Harm J, man shaped the Earth: Atopical Geography, Publishing ,California , 1994, P. 246.

(٣٧) بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(٣٨) فرحي ميلاد، موجز تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، الطبعة الأولى، ليبيا، منشورات جامعة قار يونس، ١٩٩٨، ص ٢٣.

(٣٩) إسماعيل علي سعد، علم السياسة، دراسات نظرية وميدانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٢١.

(٤٠) إسماعيل صبري مقلد، نظريات السياسة الدولية، الطبعة الثانية، الكويت، منشورات دار السلاسل، ١٩٨٧، ص ١٥٥.

(٤١) عصام العطية، القانون الدولي العام، الطبعة الخامسة، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٩٢، ص ٢٠٣-٢٠٤.

خاصة خارج أوربا وأمثلتها الإمبراطورية الفرنسية–البريطانية[٤٢]، إلا إن المعاهدة اقترحت فكرة الدولة القومية الذي هيأ المجال أمام ظهور النظام الدولي الأوربي[٤٣]، حتى أصبحت (الدولة) هي الوحدة الرئيسة في التنظيم الدولي المعاصر، فعصبة الأمم ثم من بعدها الأمم المتحدة لا تقبل في عضويتها الكاملة إلا بالمفهوم الذي عرفناه[٤٤].

أما العوامل التي أدت إلى نشوء الدولة القومية، فيمكن إجمالها على النحو الآتي[٤٥]:–

١- الانحلال الإمبريالي، وانفصال المستعمرات واستقلالها.
٢- الأوضاع الجيوبولتيكية المتميزة التي أقيمت عليها الدولة القومية.
٣- علاقة الدولة القومية بجبهات القوة العالمية.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الدولة القومية على البدء بالسير خطوة فأخرى نحو دولة قومية متكاملة متلافية بذلك كل نقاط الضعف السابقة، حتى كانت الجيوش وطنية وجعل التعليم مجانياً، وتوحيد الأوزان والمقاييس وقوانين الأعمال وظهور الإعلام والأناشيد الوطنية لبعض الدول[٤٦].

وللوقوف على المراحل التي مرت بها الدولة القومية، يمكن الاشارة الى المراحل الآتية:–

المرحلة الأولى: الدولة القومية قبل مرحلة الحرب الباردة:–

تبدأ هذه المرحلة من عقد معاهدة ويستفاليا للسلام عام ١٦٤٨ وتنتهي بقيام الحرب العالمية الثانية وتعرف بالمرحلة التقليدية ومن سماتها:–

---

[٤٢] بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٣٩٣.
[٤٣] مازن الرامضاني، القوى الدولية الجديدة والعرب والنظام الدولي الجديد عن كتاب النظام الدولي الجديد آراء ومواقف، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٢٤٣.
[٤٤] سعد الدين إبراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص ٤٣-٤٤.
[٤٥] عبد الرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص ٤٨.
[٤٦] المصدر نفسه، ص ١٦، وكذلك هانس كهن، المصدر السابق، ص ٧.

- تعد الدول الفاعل الوحيد في العلاقات الدولية، وكان لكل من إنكلترا، فرنسا، بروسيا (ألمانيا بعد ذلك)، مملكة هابسبورج (النمسا) وأخيراً روسيا مكانة متميزة خلال تلك المرحلة، كما كانت أوربا مركز الثقل السياسي[٤٧].
- انخفاض عدد الدول، فالإمبراطورية الجرمانية التي تتألف من (٩٠٠) دولة انخفض عددها إلى (٣٥٥) دولة[٤٨].
- توزيع الدول إلى مجموعتين، دول كبرى وأخرى صغرى[٤٩]، والتي اتسمت علاقات الدول الكبرى ببعدين أساسيين، أولهما احترام مبدأ السيادة، وثانيهما التنافس على الدول الصغرى[٥٠].
- ولادة الحلف المقدس أو المحفل الأوربي المكون من بريطانيا وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا في كونجرس فينا عام ١٨١٥ وقد تم على عاتقه المسؤولية وحق التدخل في الشؤون الداخلية.

وباستخدام حق التدخل، أخمدت القوى الكبرى، الثورات التحررية في إيطاليا (١٨٢٠)، أسبانيا (١٨٢٣) والانتفاضة في ولاية فالاكيا الرومانية ضد السيطرة التركية (١٨٢١)، والثورات في كثير من الدول الأوربية الصغرى ما بين عامي (١٨٣٠-١٨٤٨).

ومع كل هذا فإن جهود الحلف المقدس لمنع انتصار النظام البرلماني التحرري في أوربا أصبحت عديمة الجدوى أخيراً[٥١]، كما شهدت تلك المرحلة سمات ومعالم اخرى هي:-

---

[٤٧] حسن حمدان العلكيم، العرب وأمريكا والنظام الدولي الجديد، المجلة العربية للدراسات الدولية، العدد ٤/٣، الإمارات العربية، المعهد العربي للدراسات الدولية، ١٩٩٣، ص ٧.

[٤٨] أنيس. ل. كلود، النظام الدولي واللام العالمي، رجمة عبد الله العريان، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٤، ص ٤٣.

[٤٩] ربيع، الحوار العربي الأوربي واس را يجية الـ عامل مع الدول الكبرى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ١٠٠.

[٥٠] مازن الرمضاني، المصدر السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

[٥١] الأبحر، السياسة الدولية بعد الحرب الباردة، قراءات اس را يجية، العدد الـ امن، القاهرة، مركز الدراسات السياسية وا س را يجية ابـ هرام، ٢٠٠١، ص ٣.

- إقامة التكتلات والأحلاف المتوازنة، فالتوازن الدولي لم يكن عالمياً، بل كان ذا نطاق أوربي[٥٢].
- السماح للدولة العثمانية بالانضمام إلى عضوية المجتمع الدولي عام ١٨٥٦ بسبب حرب القرم، فضلاً عن ولادة المنظمات الدولية كاتحاد البرق العالمي عام ١٨٦٥ والاتحاد العام للبريد عام ١٨٧٤[٥٣].
- إقامة عدة مؤتمرات بمثابة وقفات أوربية للإبقاء على التوازن الدولي والاتفاق على القواعد التي تحكم التنافس الاستعماري ابتداءً من تصفية الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في البلقان والصرب، وانتهاءً بتقطيع أوصال أفريقيا واقتسامها بين الدول الاستعمارية وأمثلتها مؤتمر باريس ١٨٥٦، مؤتمر لندن ١٨٧١، ومؤتمرات برلين ١٨٧٨ ١٨٨٤ ١٩٨٥، ثم اتفاقات لاهاي لسنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ التي تضمنت قواعد الحرب والحياد، وكيفية تسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

ومع كل هذه السمات، شهد العالم الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أفرزت بدورها سمات جديدة بعد نهايتها كولادة عصبة الأمم في عام ١٩٢٠، كما إن الأسرة الدولية امتد نطاقها إلى دول خارج القارة الأوربية كاليابان والولايات المتحدة[٥٤]، فضلاً عن ولادة نظام الأمن الجماعي بعد إخفاق نظام توازن القوى في الحيلولة دون اندلاع الحرب العالمية الأولى[٥٥].

كما إن السلوك العدواني للقوى العظمى الجماعية، ولاسيما ألمانيا والاتحاد السوفيتي والذي عبر عن نفسه في اتفاقية مولوتوف رينتروب الذي

---

[٥٢] حامد ربيع، المصدر السابق، ص ١٠٠.
[٥٣] محمد سامي عبد الحميد، قانون المنظمات الدولية، الطبعة الثانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩، ص ١٤.
[٥٤] حامد ربيع، المصدر السابق، ص ١٠٠.
[٥٥] روبرت كاتلور، السياسة الدولية المعاصرة، ترجمة احمد الظاهر، بلا، مركز الكتاب الأردني، ١٩٨٩، ص ٢٠٥.

يقسم بروتوكولها السري مناطق النفوذ وسط أوربا، والذي أدى إلى العدوان ضد بولندا ١٩٣٩ واحتلال الأقاليم الرومانية بيساربيا والشمال بوكوفينا ١٩٤٠ والذي أقر فينا بين ألمانيا وإيطاليا ١٩٤٠ والذي بمقتضاه احتلت المجر ترانسلفانيا، وبهذا لجأت القوى العظمى إلى الاعتداء الواضح والصريح على الدول الصغرى، الأمر الذي أدى بدوره إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)[٥٦]، وكان من نتيجتها انتصار الحلفاء وهزيمة المحور، ولاسيما بعد ضرب هيروشيما ونكازاكي بالقنابل الذرية عام ١٩٤٥.

المرحلة الثانية: الدولة القومية في مرحلة الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١):

وهي المرحلة التي بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية بخروج القوى التقليدية وتربع كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على قمة الهرم السياسي، وبذلك أصبح النظام الدولي نظاماً ثنائي القطبية، كما لم تعد أوربا تشكل المركز بالنسبة إلى العالم، وقد أتسمت بالآتي:-

- انقسام العالم إلى معسكرين اشتراكي ورأسمالي تقود كل منهما دولة عظمى هي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، إذ تملك كل منهما من القوة العسكرية ما يفوق تلك التي لدى حلفائها مجتمعين[٥٧].
- تصاعد أخطار سباق التسلح بفعل اشتداد حدة الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٥٦) التي امتازت بكل أسباب الصراع العقائدي والتوتر السياسي والحرب النفسية والضغوط الاقتصادية[٥٨].
- تكوين الأحلاف وأمثلتها حلف شمال الأطلسي (الناتو) ١٩٤٩، وحلف وارشو ١٩٥٣.
- ولادة قطب ثالث في السياسة الدولية يعرف بحركة عدم الانحياز.

---

[٥٦] سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٤.

[٥٧] عبد المنعم سعيد، العلاقات السوفيتية الأمريكية: الصراع والتعاون من اجل الحد من التسلح، مجلة السياسة الدولية، العدد ٨٣، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٦، ص ٢٤-٢٥.

[٥٨] سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٤.

- التحرر من الاستعمار[٥٩].
- تزايد أهمية الدول في نظر القطبين الأعظم، حتى أصبحت مسرحاً للتنافس الدولي[٦٠].
- بروز سياسة التعايش السلمي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (١٩٥٧-١٩٦٩) لأدراك الطرفين عدم جدوى المجابهة العسكرية المباشرة[٦١].
- بروز مرحلة الوفاق الدولي (١٩٦٩-١٩٨٠) التي تعني التخفيف من حدة التوتر بين القوتين العظيمتين[٦٢].
- بروز اتجاهات استقلالية إلى حد ما بين المعسكرين كرومانيا في المعسكر الشيوعي وفرنسا في المعسكر الرأسمالي[٦٣].
- ولادة مؤتمر الأمن والتعاون (١٩٧٥) أو بما يعرف بمؤتمر هلسنكي[٦٤] وقد ظلت الاتفاقية تعمل خمسة عشر عاماً طالبت العالم بإحداث متغيرات.
- تصاعد بعض الدول الاقتصادية ذات التأثير الدولي المنافس للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كاليابان وألمانيا.
- تراجع حالة الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى حالة الحرب الباردة الثانية (١٩٧٩-١٩٨٥) بسبب التدخل السوفييتي في

---

(٥٩) رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين- طور الأحداثفترة ما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥،الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٣، ص ٩.

(٦٠) إسماعيل صبري المقلد، استراتيجية والسياسة الدولية، المفاهيم والحقائق الأساسية، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥، ص ٥٥.

(٦١) جلال عبد استراتيجية في العصر الذري من الردع إلى حرب النجوم، الطبعة الثانية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨١، ص ٣٩.

(٦٢) حسن البزاز، القوى العظمى بين شريعة الغاب وصراع القبيلة، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨، ص ٢٣.

(٦٣) دانيال كوفر، العلاقات الدوليةرجمة خضير خضر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥، ص ٩١-٩٢.

(٦٤) محمد الدوري، النظام الدولي الجديد والقانون الدولي، عن كتاب النظام الدولي الجديد-آراء ومواقف، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٥٠ وما بعدها.

أفغانستان ١٩٧٩، ونصب صواريخ (أس أس-٢٠) في أوربا الشرقية[٦٥]، فضلاً عن إعلان ريغان (مبادرة الدفاع الاستراتيجي IDC)[٦٦]، ولكن مع وصول غورباتشوف للسلطة في الاتحاد السوفيتي ١٩٨٥ عادت مرحلة الحرب الباردة الثانية إلى مرحلة الوفاق من جديد.

- ولادة مؤتمر باريس ١٩٩٠، وكان انعقاده تكريساً للأمن الجديد للنظام الدولي على النطاق العالمي، حتى كان يعرف بـ (عهد المتغيرات العميقة والآمال التاريخية)[٦٧].

المرحلة الثالثة: الدولة القومية بعد مرحلة الحرب الباردة:

تتصف هذه المرحلة بسمات ومعالم تختلف عن تلك المراحل التي سبقتها، يمكن إجمالها على النحو الآتي:-

- التأكيد المطلق والحاسم على انتهاء الحرب الباردة وانتهاء دور الاستقطاب الثنائي (الاتحاد السوفيتي) الذي كان يمثل الاتجاه المنافس والمعارض للولايات المتحدة الأمريكية[٦٨].
- الانفراد الأمريكي في أمور السياسة الدولية.
- انهيار الاتحاد السوفيتي والتحولات في أوربا الشرقية.
- ولادة الثورة الصناعية الثالثة.
- التكتلات الاقتصادية العالمية.
- عالمية الاتصال.
- تضاؤل دول العالم الثالث[٦٩].

---

[٦٥] عبد القادر محمفهمي، الصراع الدولي وانعكاسا ه على الصراعات الإقليمية، الموصل، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص ١١٦.

[٦٦] الفن وهايدي وفلر، الحرب الباردة المضادة، الحفاظ على الحياة في القرن المقبل، عريب صلاح عبد الله، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والـ وزيع والإعلان، ١٩٩٥، ص ١١٣.

[٦٧] محمد الدوري، المصدر السابق، ص ٢٧.

[٦٨] ليث عبد الحسن الزبيدي، النفط العربي والنظام العالمي الجديد، مجلة آفاق عربية، العدد ٥، بغداد، دار الشؤون الـ قافية العامة، ١٩٩٢، ص ٥٨.

- اتساع الفجوة بين عالم الشمال والجنوب.
- تراجع الصراع الإيديولوجي ونمو الصراع العلمي.
- إضعاف دور الأمم المتحدة في اتخاذ القرارات بشأن الدول التي تقف عائقاً أمام القوى الكبرى.
- تطبيق الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات القومية أو الأقليات الأخرى، لكن تحت التهديد والعقوبات والسيطرة الأجنبية، وهي ما حدث فعلاً في يوغسلافيا[٧٠].
- العمل على إزالة أسلحة الدمار الشامل بطريقة ازدواجية.
- الإعلان على الحرب ضد الإرهاب وتسخير كل الامكانات والقدرات لكسبها، وعلى أساس ذلك تم غزو أفغانستان والعراق، ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١.
- تجميع الحلفاء على أساس مبدأ معنا أو ضدنا، والتحكم بالأمم المتحدة ومجلس أمنها.
- تبني سياسة الضربة الاستباقية أو الوقائية ضد مراكز الإرهاب المفترضة.
- الإعلان الشهير للقوى الكبرى عن وجود محور الشر والتعهد بتصفيته.

واستناداً لما سبق يمكن القول إن بزوغ الدولة القومية بشكلها الحالي لم يكن وليدة إحداث آنية بل عبر مخاض وصراع، نتج عنه هذا الانتقال ووفق مراحل كان الهدف في النهاية الانقلاب على كل ما من شأنه أن يحد من حرية الإنسان، وكان تطور الدولة إلى شكلها الحالي يدور في فلك واحد، وهو الإنسان الذي يسعى لهذا الانتقال به من دولة عهد العصور المظلمة والسلطات المستبدة إلى دولة فيها الإنسان هو المسير للأمور، ولا دولة من دون شعب

---

[٦٩] مازن إسماعيل الرمضاني، النظام العقيدي والنظام الدولي الجديد، آفاق عربية، العدد ١٢، بغداد، دار الشؤون الـ قافية العامة، ١٩٩١، ص ٢٩-٣٠.

[٧٠] سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٦.

على أن يحكم هذا الشعب قانون لا يحد من حريته بقدر ما يحفظ له حقه في العيش والعمل والانتقال ويؤمن له الحماية في ظل الدولة القومية الحديثة.

ثانياً: الدولة المتعددة القوميات (State of multiful nationalities):

يعد موضوع الدولة المتعددة القوميات في عالمنا الراهن من الموضوعات التي تعالجها أدبيات العلاقات الدولية على ضوء المقومات الجيوبولتيكية للكيان السياسي الذي يضم خليطاً من الشعوب والقوميات.

إن مشكلة القوميات ومعالجة مطاليبها ومطامحها في الاستقلال والانسلاخ من الدولة الأم، برزت بشكل واضح في مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩، الذي يكرس هيمنة المنتصرين في الحرب على حساب المنهزمين والقائم على منطق القوة.

ويبدو إن النظام الدولي لا يسمح في الغالب بانسلاخ القوميات من دولها الأم، لكن ذلك قد يحدث في الأزمات التي تحدث تغييراً أو تبدلاً في النظام الدولي ولاسيما بعد الحروب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) [٧١] والحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١) أو مرحلة انتهاء الحرب الباردة.

وفي ضوء ذلك فالشعوب المكونة للأمم، أما تكون شعباً بسيطاً يمتاز بعدم التنافر الاثنوغرافي، برغم تعدد السلالات في تركيبه، أو شعباً ملتئماً، وهو مكون من عدة شعوب، ذات لغة وحضارة خاصة بكل منها ولكن ليس فيها من يناوئ الدولة أو يبغي الانفصال عنها، فبريطانيا شعب ملتئم فيه ثلاث قوميات (الإنكليزية والاسكتلندية والويلزية) وهكذا، أما النوع الثالث من الشعوب فهو الشعب المركب، وهو أخطر الأنواع، ويعبر عن دولة لم تنضج قومياً، ولم

---

[٧١] كاظم هاشم نعمة، العلاقات الدولية، بغداد، شركة أياد للطباعة، ١٩٧٨، ص ٢٨٥-٢٩٨.

تمتزج عناصرها ببعضها، وتتكون من قوميات متعددة يدعم انفصالها حواجز اقتصادية واجتماعية[٧٢]، كما كان الحال في جمهورية يوغسلافيا السابقة.

ووفقاً لهذا الطرح تمتاز الدولة المتعددة القوميات بمظهرين، أما أن تكون ذات قوميات متكافئة فيها تحافظ على توازن الدولة القومي، أو أن تكون هناك أقليات قومية إلى جانب الأغلبية في الدولة[٧٣].

وفي أدبيات العلاقات الدولية، فإن انفجار قضايا القوميات في الدولة المتعددة القوميات تعود إلى عدة عوامل منها انتشار الفكرة القومية في العالم والنظريات القومية التي تدعو إلى استقلال كل شعب وقومية بكيان خاص، وانتشار ثقافة حق الشعوب في تقرير المصير، ورواسب الاستعمار كخلق كيانات دينية جديدة في الكثير من الدول عن طريق التحالف والتبشير أو الحدود السياسية التي رسمها المستعمر، أو حركات التحرر من نير الاستعمار، كل هذه الأمور أدت إلى مطالبة القوميات بحقها في تقرير مصيرها أو المطالبة بالانفصال عن الدولة الام.

وفي ضوء هذه الحقيقة سوف نختار عينات ونماذج من مناطق مختلفة بقدر المعلومات المتاحة حتى تكون الصورة أكثر شمولاً وتكاملاً.

١- المشكلة القومية الابخازية والصراعات العرقية في القوقاز:

تقع ابخازيا على واجهة البحر الأسود في شمال غرب جورجيا، ويقدر سكانها بنحو ٥٢٥.٠٠٠ ألف نسمة، ويجمع سكانها لغة واحدة(لغة القوقاز) إذ تشكل نسبة ١٨% من سكان ابخازيا وأفرادها يدينون بالإسلام مع أقلية مسيحية، أما مساحتها فهي بنحو ٨٦٠٠كم٢[٧٤].

---

[٧٢] للا فصيل ينظر: محمد محمود إبراهيم الديب، المصدر السابق، ص ٩٨ اوكذلك محمد م ولي محمود أبو العلا، المصدر السابق، ص ١٠٣.

[٧٣] إ سام عبد الزهرة، المصدر السابق، ص ٢١.

[٧٤] لمحمد رفعت الإمام، جورجيا والأزمة ا بخازية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٤٧، القاهرة، مركز الدراسات السياسية وا سـ را يجية بالأهرام، ٢٠٠٢، ص ١٤١.

وتؤكد حقائق التاريخ إن الابخاز يشكلون حتى عام ١٨٦٤ الأغلبية المطلقة، ثم سرعان ما اخذ عددهم في التناقص مقابل زيادة سكان الجورجيون، فالتركيبة العرقية بعد الاتحاد السوفيتي، كانت على النحو الآتي:- الجورجيون ٤٥%، الأرمن ١٩.٤%، الابخاز ١٨%، الروس ١٢% اليونانيون ٢.٨%، الأوكرانيون ٢.٢%، وبعد حرب الاستقلال الابخازية بين عامي (١٩٩٢-١٩٩٣) ونزوح حوالي ٢٥٠ ألف جورجي عاد الابخاز من جديد يمثلون الأغلبية العددية للإقليم[٧٥].

وعلى الرغم من جورجيا ذات طابع مركزي، وتهيمن عليها الأغلبية الجورجية فقد تم إقصاء الأقلية عن أي مشاركة سياسية وعن أي تمثيل في الحكومة، إذ تتعامل معها بمنطق الإخضاع، وهو ما أدى بها إلى حرب الاستقلال التي قادها الابخاز للحفاظ على وجودهم القومي، إذ يتطلعون فيها إلى الاستقلال التام عن جورجيا، والقبول مرحلياً بصيغة فدرالية للدولة الجورجية، وهي في رأي الكثيرون بان ابخازيا جزء من جورجيا، وإن امتيازاتهم جاءت كسياسة من الدولة السوفيتية التي قسمت جورجيا ثلاثة أقسام، وأوجدت فيها كيانات ثلاث تتمتع بالحكم الذاتي ومنها ابخازياً وأوسيتيا الجنوبية وهو ما دفع بجورجيا إلى إلغاء حكمها الذاتي وضمها إلى دولة جورجيا بعد زوال الاتحاد السوفيتي، لاسيما إن النظرية القومية الجورجية تقسم القوميات إلى نوعين: أصيلة (الجورجيون، الابخاز، الادجار) ودخلاء (داغستان، الأذريين، الأرمن، الأوسيت) وهؤلاء الدخلاء أمامهم خيارات أما الذوبان أو الهجرة، ولما كانت غالبية الجورجيون ارثوذكس فإنهم ينظرون إلى الادجار بأنهم جورجيون اعتنقوا الإسلام، ومن ثم فلا حاجة للإبقاء على وضع خاص بهم،الأمر الذي لابد من إرسال البعثات التبشيرية لإعادتهم إلى الأمة[٧٦].

---

[٧٥] المصدر نفسه، ص ١٤١.
[٧٦] المصدر نفسه، ص ١٤٤-١٤٥.

إن المشكلة الابخازية القومية والصراعات الموجودة في القوقاز تعد من أهم الأمثلة على كيفية تأثير قضايا القوميات على السياسات والعلاقات الدولية وإعادة رسم التحالفات، إذ يوجد في القوقاز خمس صراعات عرقية رئيسة هي[٧٧]:-

- الصراع الأرميني-الأذري حول جيب كاراباخ.
- الصراع الجورجي-الأوسيتي حول أوسيتيا الجنوبية.
- الصراع الأوسيتي-الأنجوشي حول بريجورودني رايون في أوسيتيا الشمالية.
- الصراع الروسي-الشيشاني حول الشيشان.
- الصراع الجورجي-الابخازي حول ابخازيا.

ويمكن تفسير هذه الصراعات المتعددة لسببين هما[٧٨]:-

١- إن هذه الصراعات لم تكن وليدة أحداث آنية، بل قديمة تعود جذورها إلى العشرينات ولكنها ما وجدت فرصة للاشتعال إلا بعد الاتحاد السوفيتي.

٢- سياسات السوفييت القمعية والتعسفية للقوميات والخرائط العشوائية التي وضعت لتسهيل تحكم الدولة المركزية لغرض المزيد من السيطرة وأمثلتها كوضع إقليم كاراباخ ذي الأغلبية الأرمنية في أذربيجان ووضع ناخيتشفان بين أرمينيا وإيران ويلامس الحدود التركية- كجمهورية حكم ذاتي في أذربيجان، ولم تعط قوميات أخرى أي حكم

---

(٧٧) فصيل ينظر: شيريان فيكن، جدلية الصراعات العرقية ومشاريع النفط في القوقاز، أبو ظبي، مركز الإمارات لدراسات والبحوث الستراتيجية، د.ت، ص ٧٨.وكذلك عصمت برهان عبد القادر، جذور وأبعاد الصراع الشيشاني الروسي،الموصل، مكتبة الجبل، ١٩٩٩، ص ٣٣ وما بعدها.

(٧٨) فصيل ينظر: نبى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥.وكذلك شيريان فيكن، المصدر السابق، ص ١٤، وكذلك زبيغنو بريجنسكي، الفوضى- اضطراب العالمي عند مشارف القرن الحادي والعشرين، ترجمة نرجس علي فاضل، عمان، الأهليةللنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص ، وقلان مع محمد الأطرش، حول الأزمة الدستورية الدولية الراهنة، عن كتاب العرب و تحديات النظام العالمي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٣٠.

ذاتي في الاتحاد السوفيتي مثل الطاليش في أذربيجان والأكراد في أرمينيا، وفي النهاية مما أدى إلى تحول هذه الصراعات من محلية إلى إقليمية ودولية، وسرعان ما تتحول إلى نزاعات خارجية عندما تتدخل دولة لصالح أحد الأطراف المتنازعة لحصولها على مواطئ قدم، أو مصالح معينة تحققها، أو دعم القومية التي تنتمي لها مثل دعم الأتراك للأذربيجانيون ضد الأرمن، وتدخل الروس لصالح الأرمن، ووقوف الشيشان مع الابخاز، وهكذا فإن انفجارمثل هذه القضايا يمكن أن يكون مصدر تحدٍ للسلم والأمن.

٢- القضية القومية الصومالية:

تقع الصومال في شرق أفريقيا، يحدها من الشمال والشرق والجنوب المحيط الهندي، كينيا وإثيوبيا من الغرب، ومن جهة الشمال الغربي جيبوتي، أما مساحتها أكثر من ٩.١٠.٠٠٠ مليون نسمة وعاصمتها مقديشو، وتمثل صادراتها الموز والمواشي والجلود(٧٩).

ويمتلك الشعب الصومالي لغة واحدة وأصول عرقية مشابهة، وأفراده يدينون بالإسلام مع أقلية مسيحية ويعيشون على أرض خاصة بهم، إذ يملكون كل مقومات القومية الواحدة التي لابد أن تكون مجتمعةً واحدةً، ولكنه تم تقسيمه إلى خمسة أقسام وكيانات سياسية، الأمر الذي تم تجسيده في العلم الصومالي الذي يحتوي على نجمة من خمسة أضلاع لتدل على أجزاء الشعب الصومالي المتناثرة في كل من الصومال وإثيوبيا وجيبوتي وكينيا(٨٠).

إن القومية الصومالية لم تنبعث كرد فعل لمقاومة الحكم الاستعماري، أو نتيجة التأثر بآراء الغرب، ولكنها نبعت أساساً من طبيعة الشعب الصومالي

---

(٧٩) محسن، الجغرافية، الموسوعة الـ قافية العامة، بيروت، دار الجبل، ١٩٩٩، ص ١٥٧.

(٨٠) ثلبيه الأصبهاني، المواجهات المسلحة الإ يوبية الصومالية، مجلة السياسة الدولية، العدد ٥٤، القاهرة، مركز الدراسات السياسية وا سـ را يجية بالأهرام، ١٩٧٨، ص ٢٢.

الذي لم يفتت من وحدته، نتيجة تجزئة الشعب بين دول استعمارية متعددة[٨١] فالصومال منذ قرابة نصف قرن يقسم على النحو الآتي[٨٢]:-

- استمرار السيطرة البريطانية على الصومال الشمالي.
- استمرار السيطرة الإيطالية على الصومال الجنوبي، رغم توحيد الشطرين الشمالي والجنوبي عام ١٩٦٠.
- استمرار السيطرة الفرنسية على إقليم عفار وعيسى (الصومال الفرنسي/جيبوتي).
- وجود جزء من الصومال ضمن المستعمرة البريطانية لكينيا.
- استمرار السيطرة الإثيوبية على الصومال الغربي (هرر وأوغادين وما حولها) وهكذا أصبحت أجزاءً من الأراضي الصومالية تحت الهيمنة الإثيوبية.

وتبعاً لذلك، تعد كل من إثيوبيا وكينيا هذه الأراضي جزءً متمماً لدولتها لا يمكن التفريط به، ولا إعطاءه حق تقرير المصير، الأمر الذي يرفضه الصوماليون بشدة.

وتبعاً لذلك فإن القضية القومية الصومالية تؤثر بكل أو بآخر على العلاقات الدولية، إذ شهدت منطقة القرن الأفريقي توتراً كبيراً وصراعاً مرير بسبب تطلعات تلك القومية لطموحاتها في التحرر والاستقلال من جهة، وتعنت الدول المعنية من جهة أخرى.

فالولايات المتحدة من ألد أعداء القومية الصومالية منذ القدم، إذ ساندت إمبراطور إثيوبيا (هيلاسيلاسي) من حقوق وتطلعات الصوماليين، وقدمت له مساعدات عسكرية ضخمة في حربه مع الصومال، إذ دخلت

---

[٨١] وفال، القومية الصومالية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١، القاهرة، مركز الدراسات السياسية وسلد را يجية بالأهرام، ١٩٦٥، ص ١٦٤.

[٨٢] عبد السلام إبراهيم بغدادي، المصدر السابق، ص ١٦٥.

الدولتان في حربين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٧[٨٣]، وحاول الصوماليون إعادة أوغادين وهرر إلى الصومال، ورفضت الولايات المتحدة مساعدة الصومال عموماً وتزويدها في السلاح لأنها كانت تحتفظ بقواعد اتصالات عسكرية في البحر الأحمر وتحديداً في ارتيريا التي نالت استقلالها عام ١٩٩٣ بعد أن كانت جزءً من إثيوبيا[٨٤] كما شهدت العلاقات الصومالية الفرنسية والصومالية البريطانية قطيعة وتوترات بسبب دور الدولتين في رسم خريطة المنطقة وعدم مساندتها لحقوق الصوماليون.

وعلى صعيد القوى العظمى وتأثير هذه القضية عليها، فقد توجه السوفييت والصينيون إلى مساعدة الصوماليون مدة من الزمن لمواجهة الوجود العسكري الأمريكي في القرن الأفريقي والبحر الأحمر.

وبعد تصفية حكم هيلا سيلاسي عام ١٩٧٧ في إثيوبيا، ووصول منغستو ميريام إلى مقاليد الحكم سرعان ما ساءت العلاقات الصومالية السوفيتية، ووقفوا مع الإثيوبيين وبنوا قواعد عسكرية في البحر الأحمر، وبدأت العلاقات الصومالية تنحرف تدريجياً نحو الولايات المتحدة، وأعلنت الصومال في تلك الأثناء على موافقتها على موضوع تقديم تسهيلات عسكرية للولايات المتحدة والسماح لها باستخدام المرافق الجوية والبحرية التي كان الاتحاد السوفيتي قد أنشأها في الصومال منذ عدة أعوام[٨٥].

ولكن الولايات المتحدة بعد دراستها للأمر الواقع اضطرت للتراجع خشية حدوث حرب دولية كبيرة بين المعسكرين بسبب الوضع في القرن الأفريقي.

وبناءً على ما تقدم فالقضية القومية الصومالية تؤثر بشكل واضح في كل مشاريع السياسة الخارجية للدول المعنية بالقرن الأفريقي، ولاسيما الدول

---

[٨٣] وفال، المصدر السابق، ص ١٦٧.
[٨٤] عبد السلام إبراهيم وسعد ناجي، المصدر السابق، ص ٩٤-٩٦.
[٨٥] موسى زناد، القواعد العسكرية الأجنبية، بغداد، الدار العراقية للـ وزيع، ١٩٨٥، ص ٩٢.

الأربعة المعنية بالمشكلة، كما إن لها تأثيرها على التغيرات والسياسات الداخلية التي تنعكس على السياسات الخارجية.

٣- أسبانيا وإقليم الباسك:

باسك كمنطقة هي سبعة مقاطعات ثلاث منها في فرنسا، وأربع منها في أسبانيا (مالاقا، بسقاية، جيبوثكوا، نافارا) وهو إقليم يقع في الشمالي الشرقي من أسبانيا ويمتد إلى جنوب فرنسا، ويسكن أغلب شعب الباسك البالغ تعداده (٣) مليون نسمة سالمقاطعات الأسبانية على سفوح جبال البيرينية القريبة من فرنسا، إذ تعد هذه المنطقة مركزاً مهماً للصناعات الأسبانية[٨٦]، وكان هذا الإقليم يوماً ما له كيان نظامي بحد ذاته، ففي عام ١٩٣٦ أصدرت الحكومة في أسبانيا قانون الحكم الذاتي للمقاطعات، وانتخب رئيساً لها، ولكن نظام فرانكو الحاكم أصدر قانوناً بإلغاء الحكم الذاتي سنة ١٩٣٧، وذهبت حكومة الباسك إلى المنفى في المكسيك[٨٧].

ومنذ ما يقارب سبعاً وأربعين عاماً تشن حركة إيتا الانفصالية حرباً عنيفة ضد الحكومة المركزية في مدريد لفصل الإقليم واستقلاله وأسفرت تلك العمليات عن سقوط آلاف الجرحى، فضلاً عن فاتورة مالية باهظة وخسائر تقدر بملايين الدولارات.

ومنظمة إيتا (E.T.A) هي اختصار لأسم باللغة الباسيكية من الحروف الآتية (Euskadi Taaskata Suna) ومعناه بلاد الباسك والحرية، وتأسست عام ١٩٥٦ في اجتماع سري، وشعارها (٤+٣+١) يطالبون بإقامة دولة مستقلة تضم إقليم الباسك الأسباني والفرنسي[٨٨].

---

[٨٦] محمد الغنام، الإرهاب في الديمقراطيات الغربية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠٧، القاهرة، مركز الدراسات السياسية وا سـ را يجية بالأهرام، ١٩٩٢، ص ٩٦.

[٨٧] نازلي معوض، النظام الأسباني ما بعد الجنرال فرانكو، مجلة السياسة الدولية، العدد ٤٣، القاهرة، الدراسات السياسية وا سـ را يجية بالأهرام، ١٩٧٦، ص ١٦٠.

[٨٨] المصدر نفسه ، ص ١٦٦.

وفي عام ١٩٥٩ ظهرت منظمة إيتا على مسرح الأحداث، وبدأت العمل العسكري المسلح عام ١٩٦١ من خلال وضع المتفجرات في مقرات الجيش والشرطة، وعقدت اجتماعها الأول عام ١٩٦٢، وحددت هويتها كمنظمة ثورية، وفي عام ١٩٧٣ قامت باغتيال بلانكو رئيس حكومة فرانكو في مدريد[٨٩]. حتى بلغت ذروتها في المدة المحصورة بين عامي ١٩٧٨ – ١٩٨٠ التي شهدت فيها أسبانيا حكومة ديمقراطية، وتحديداً بعد صدور دستور جديد للبلاد أعطى ميزات حكم ذاتي للإقليم، وقام سكانه عام ١٩٨٠ باختيار المجلس التشريعي المحلي، ولكن المنظمة رفضت هذه الصيغة.

وتضم منظمة إيتا جناحين: الجناح العسكري والجناح السياسي، الذي يتكون من المتعاطفين معها الذين يجتمعون في الائتلاف المسمى (هري باتا سونا Heri Bata Suna) ومعناه الشعب المتحد[٩٠]، ومع كل هذا فانه لا يتمتع بتأييد شعبي في إقليم الباسك، إلا في مقاطعتي جيبوثكوا وبسقاية.

وفي إقليم الباسك توجد أحزاب مؤدية للانفصال مثل الحزب الباسكي الوطني وحزب ايسكو الكارتاسونا، وحزب اوسكال هريتا روك أو الجناح السياسي لمنظمة ايتا، إذ حصلت هذه الأحزاب مجتمعة على ٥٢% من الأصوات في المجلس التشريعي المحلي عام ١٩٨٨، الأمر الذي يوضح الثقل السياسي لها[٩١].

لقد تضمنت قائمة ضحايا ايتا الكثير من كبار رجال الدولة والمسؤولين الأسبان منهم رئيس الوراء (بلانكو) والحاكم العسكري لمدريد، والحاكم العسكري لمقاطعة جيبوثكوا وغيرهم من الصحفيين والمدنيين ممن تعدهم المنظمة من الخونة لعملاء التصفية الجسدية[٩٢].

---

[٨٩]محمد الغنام، المصدر السابق، ص ٩٧.

[90] Salvador ciner: Laconguista del caos. Terrismoy sociedad Democratia, Madrid, 1982, P. 9.

[٩١]عزة سامي ١١ نفصالية، صحيفة الأهرام، القاهرة في ٢٠٠١/٧/٢١.

[٩٢] محمد الغنام، المصدر السابق، ص ٩٨.

ومع إن إيتا أعلنت أواخر التسعينات الهدنة مع الحكومة، إلا إنها لم تتوقف عن أعمال العنف، واشتدت هجماتها من عام ٢٠٠٠، وتحاول الحكومة الأسبانية أن تضغط على الأحزاب الباسكية التي منحتها كل الصلاحيات السياسية والاقتصادية والإدارية والقضائية، ولم تحتفظ بالصلاحيات إلا في مجالي الدفاع والخارجية، ولكن منظمة إيتا لا تقبل إلا بفكرة الاستقلال، رغم إن (٢٥%) فقط من إجمالي الشعب الباسكي في أسبانيا يؤيدون الانفصال عن أسبانيا، أما الباقون فيفضلون البقاء في دولة أوربية كبيرة ديمقراطية[٩٣].

أما بالنسبة للعلاقات الدولية فإن مشكلة الباسك تخلق دوماً متاعب للدولة الأسبانية داخلياً وخارجياً، وأبرز ما تجلت به هذه المتاعب هو أحداث ١٩٧٥، حينما أقدمت الحكومة على تنفيذ حكم الإعدام في خمسة من الناشطين من الإقليم، اثنان من زعماء إيتا، وثلاثة من زعماء الجبهة الثورية الماوية المناهضة للفاشية بتهمة قتل رجال الشرطة متجاهلة مناشدات دولية وضغوطات عديدة من أجل منعها عن هذا الفعل، الأمر الذي أعطى دفعة قوية لحركة تحرير الباسك، حينما طالب رئيس المكسيك وقتها بطرد أسبانيا من الأمم المتحدة، وهاجم رئيس الوزراء السويدي أولف بالمة حكومة مدريد، ووعد بتقديم معونة مالية لحركة الباسك، واستدعت كل الدول الغربية باستثناء أيرلندا سفراءها من مدريد للتشاور، وصدر قرار إدانة من مجلس وزراء خارجية السوق الأوربية المشتركة، أدان فيه تصرفات حكومة مدريد، الأمر الذي فرض عزلة على أسبانيا[٩٤].

٤- كندا والمشكلة القومية في كيوبك:

تعد كندا إحدى الدول الصناعية السبع الكبرى في العالم، إذ تقع في قارة أمريكا الشمالية، وهي تنتمي إلى الدول الديمقراطية ذات التجربة القومية

---

[93] El Pais Diario independient, No. 8.240, Madried 2 de marzo de, 2000,
P. 12.

[٩٤] محمد الغنام، المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩ وما بعدها.

والعرقية ولاسيما في مقاطعة كيوبك، لما لها من تأثير على الدولة الكندية داخلياً وخارجياً، وبما يؤثر على مستقبلها السياسي كدولة موحدة.

ينقسم السكان في كيوبك إلى جاليتين إنجليزية (الاكثرية) وفرنسية (الأقلية)) إذ تبلغ مساحتها ٥٩٤.٨٦٠كم، وهو أكبر مقاطعة مساحةً، وتحتل المرتبة الثانية من عدد السكان الذي يبلغ تعداده (٧) ملايين نسمة، كما إنها تشكل المرتبة الأولى في إنتاج البوتاسيوم والنحاس[٩٥] تسهم بنحو ٢١% من إجمالي الناتج المحلي الذي بلغ عام ١٩٩٥ (٦٠٠) مليون دولار أمريكي[٩٦].

ويشكو سكان كيوبك من تسلط الإنجليز وهيمنتهم الثقافية والسياسية والاقتصادية عليهم، منذ وقوعها في أيدي الإنجليز عام ١٧٦٠ حتى انضمامها للاتحاد الفيدرالي الكندي عام ١٨٦٧ كمقاطعة فرانكفورنية وحيدة في كندا، الأمر الذي أدى إلى ذوبان شخصيتهم المستقلة وثقافتهم الخاصة، ومن ثم مخاوف الفرنسيين الناجم عن المواليد الفرنسية في المقاطعة، والتغيير الديمقراطي بالنسبة للمهاجرين الذي غالباً ما يختارون اللغة الإنجليزية، وهو ما يؤدي لزيادة عدد الإنجليز[٩٧].

لقد أدى هذا التهميش والإقصاء إلى ظهور تيارات سياسية تتبنى الوحدة، وبعضها تتبنى الانفصال، ومن الأحزاب السياسية المؤيدة للانفصال هي[٩٨]:-

١- حركة الأليانس: وقد ظهرت هذه الحركة بين عامي (١٩٥٧-١٩٦٢) وهي مدعومة من اليمين السياسي والكنيسة الكاثوليكية.

٢- حركة تحرير كيبك: وهي الجبهة التي أنشئت عام ١٩٦٢، وتتبنى أفكاراً ثورية، تمثل امتداداً للمنظمات الماركسية في كوبا وبعض الدول

---

[٩٥] منى محمد طه، مشاكل الوحدة في بناء الدولة الحديثة، مجلة دراسات اسيوية، العدد ١٣، الخرطوم، ١٩٩٨، ص ١٢٢.
[٩٦] محمد خال، صحيفة الحياة، العدد ١، لندن في ١٩٩٦/١١/١.
[٩٧] منى محمد طه، المصدر السابق، ص ١٢٤.
[٩٨] المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

الشيوعية، ونسفت المباني، وولدت الرعب في السلطات المركزية ولاسيما في أحداث ١٩٧٠، واختفت من الوجود بعد أن اعتقل منهم ٥٠٠ ناشط.

٣- حركة التجمع للاستقلال RANA: وهي الحركة التي ظهرت على مسرح الأحداث عام ١٩٦٢ بزعامة (مارسيل شابو) وتحمل شعار كيبك للكيبكيين، وتحدد هوية السكان بالفرنسية والكاثوليكية.

٤- الحزب الكيبكي: وهو الحزب الذي ظهر عام ١٩٦٧، ويحمل أفكاراً سياسية انفصالية، إذ وصل الحزب إلى الحكم في المقاطعة ثلاث مرات، وأجرى استفتاءين للانفصال عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٥، ويعد الآن لاستفتاء آخر.

أما بالنسبة للعلاقات الدولية، فلا جدال إن هذه القضية ووضع الفرنسيين فيها يعد من المتغيرات المهمة في العلاقات الفرنكوفونية ولاسيما فرنسا، إذ يسودها التوتر أحيانا وهو ما حدث بعد زيارة الرئيس الفرنسي (ديغول) في الستينات للمقاطعة ودعوته في خطبه إلى الحفاظ على الطابع الفرنسي للمقاطعة، إذ اعتبرته كندا تحريضاً وتدخلاً في شؤونها الداخلية.[٩٩]

ويرى الاتجاه المؤيد لانفصال كيوبك بان المقاطعة تتمتع بكل مقومات دولة ناجحة، في حين يصف بعضهم بأنها تمثل خمسة ملايين سجين سياسي، ونتائج الاستفتاءات تحمل زيادة المشاعر الانفصالية، إذ حصل الانفصاليون في الاستفتاء الأخير لعام ١٩٩٥على ٤٩.٤% مقابل ٥.٤٠% في استفتاء ١٩٨٠[١٠٠].

---

[٩٩] صحيفة الحياة، لندن في ١٩٩٨/٨/٧.

[١٠٠] منى محمد طه، المصدر السابق، ص ١٢٥.

وفي ضوء ذلك يبدو لنا مدى التأثير الذي تتركه قضايا القوميات على العلاقات الدولية، فضلاً عن إيجاد بؤر إقليمية للصراع، وعرقلة مشاريع التكامل والتعاون بين الدول المعنية بهذه الصراعات وحقوق تلك القوميات.

الخاتمة:

لقد تبين من خلال البحث إن هناك تعريفات كثيرة ونظريات متعددة تختلف في تحديدها لعوامل تكوين القوميات، ولكن في الواقع نجد إن عاملاً واحداً مثل الدين واللغة يكون كافياً أحياناً لتشكيل شخصية قومية من القوميات.

إن الشعور القومي بالخصوصية والتمييز ظاهرة عالمية لا تخلو في أي مكان من العالم، إذ تمثل جزء من الفطرة البشرية ومن ثم فإن هذا الشعور يكمن في توافر صفات لهذه المجموعة (كاللغة، والدين، والعرق، والثقافة والعادات) ومن ثم لابد من المحافظة على تلك الصفات لأنه حق من الحقوق وجزء أصيل من طبائع البشر، ولا ينبغي التخلي عنها مهما كانت الأسباب لأنها تحمل في طياتها استخفافاً بقيم الآخرين والاستعلاء على ما هم عليه.

إن الدعوة إلى القومية اكتسحت في القرن التاسع عشر روح الرجعية القديمة، مما نتج عنه استقلال أمم كثيرة خضعت طويلاً لغيرها وقامت كدول جديدة عرفت بالدول القومية ولدت بعد معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨، ومن بين هذه الدول ظهرت الدولة المتعددة القوميات التي يضم سكانها خليط من

الشعوب والقوميات، فأما أن تكون قوميات متكافئة تحافظ على توازن الدولة القومي، وأما أن تكون أقليات قومية ذات أغلبية في الدولة.

أن لجوء تلك القوميات إلى الاستقلال يكون اعتماداً على الحق الطبيعي لكل قومية بالاستقلال والتمتع بحرية استناداً إلى مبدأ حق المصير وبسبب شعورها بالاضطهاد ومن القومية الأكبر أو نزوعاً إلى الاستقلال يعود أما بسبب تدخلات خارجية، أو بسبب كونها منتهكة الحقوق، فتطالب بالاستقلال لاستعادة مركزها وتطالب بحقوقها، وهذه الحقيقة تبين لنا الأثر الذي تركه العامل القومي على العلاقات الدولية وفي الاستقرار الداخلي والإقليمي وحساسية التعامل معه.